# قِصَّةُ أُمَّـــة

كَوَجْهٍ صَبُوحٍ اكْتَسَى مِنْ حُلَلِ الحُسْنِ وَالمَلاَحَة .. بَدِيعًا بِلاَ نَظِير ، لاَ تَسْأَمُ العَيْنُ مِنْهُ، يُشْرِقُ فِي غَلَسِ الدُّجَى عَلَى أَرْضٍ مَوَاتٍ .. كَانَ مَوْلِدِي.

كَانْبِلاَجِ الفَجْرِ يَشُقُّ مَجَاهِلَ الدُّنْيَا في دُجْنَةِ لِيلٍ بَهِيمٍ حَالِكِ السَّوَادِ .. كَانَ مَوْلِدِي.

كَرَنَّةِ الأَفْرَاحِ تَنْسَابُ ثَرَّةً[١] مِنْ فَمِ العَنْدَلِيبِ في مُهْجَةِ الظَّلاَمِ الهَيُوبِ[٢] مُتَرَنِّمًا فَوْقَ الزَّوَابِعِ وَالأَعَاصِيرِ .. كَنَسَمَاتٍ بَارِدَةٍ عَلَى وَجْهٍ كَالِحٍ في قَيْظِ الصَّحَرَاءِ .. كَأَمَلٍ مُرْتَجًى بَاسِمٍ ضَحُوكٍ أَبْيضَ نَاصِعٍ مُبْهِجٍ كَأَزْهَارِ الرُّبَى، مَيَّاسٍ؛ كَعَرَائِسِ الفِرْدَوْسِ في الحُقُولِ في أَفْوَافٍ[٣] عَاطِرَةٍ تَهْفُو القُلُوبُ إِلَيْهِ في ظُلْمَةِ القُنُوطِ العَصِيبِ .. كَأَغَارِيدِ الصَّبَاحِ بِنَغَمٍ

---

(١) كَثِيرَة، وثَرَّ الشَّيْءَ ثَرًّا: بَدَّدَه وَفَرَّقَهُ.

(٢) الهَيْبَةُ وَالمَهَابَةُ: الإِجْلاَلُ وَالمَخَافَةُ، وَ(هَابَ الشَّيْءَ): إِذَا خَافَهُ وَإِذَا وَقَّرَهُ. وَالظَّلاَمُ الهَيُوبُ؛ أَي: الَّذِي يَخَافُهُ النَّاسُ.

(٣) (أَفْوَاف) جَمْعُ (فَوْف)؛ أَيْ: الزَّهْرُ، أَوْ ثِيَابٌ رِقَاقٌ مُوَشَّاةٌ.

الجَمَالِ الخَلُوبِ فِي شِفَاهِ الدُّهُورِ الذَّابِلَةِ مِنْ كَثْرَةِ اعْتِلاَجِ[١] النَّحِيبِ وَالعَوِيلِ المُرِّ وَالشَّقَاءِ وَأَلَمِ البُؤْسِ وَاليَأْسِ المُتْرَعِ بِالدُّمُوعِ .. كَيَدٍ بَيْضَاءَ فَتِيَّةٍ تَمْتَدُ لِغَرِيقٍ بَعْدَ يَأْسِهِ فِي مُسْتَنْقَعٍ آسِنٍ[٢] .. كَانَ مَوْلِدِي.

وَغَرَّدَ الكَوْنُ وَاسْتَبْشَرَ، وَارْتَدَّ وَجْهُ الأَرْضِ يَنْضَحُ بِشْرًا، وَاسْتَنَارَتِ الدُّنْيَا بِمَوْلِدِي، وَتَأَلَّقَ الفَجْرُ بَاسِمًا يَسْطَعُ بِنُورِهِ يُضِيءُ الكَوْن. ...

فَمِنْ يَوْمِ وِلاَدَتِي؛ كَانَ لِي فِي هَذَا الكَوْنِ شَأْنٌ وَأَيُّ شَأْنٍ، فَالكَوْنُ جَمِيعُهُ كَانَ يَتَرَقَّبُ مَوْلِدِي، وَوَقَفَ العَالَمُ كُلُّهُ يَشْهَدُ المَخَاضَ وَلَحَظَاتِ الوِلاَدَةِ السَّعِيدَةِ .. المَجِيدَةِ، وَشَعَرَ العَالَمُ حَتَّى جَمَادَاتِهِ بِعِظَمِ الحَدَثِ، فَلَمْ أُوْلَد قِزْمًا وَلاَ صَغِيرًا كَأَتْرَابِي، بَلْ وُلِدتُ عِمْلاقًا كَبِيرًا؛ عَلَى رَأْسِي تَاجُ المَحَاسِنِ حِلْيَةً، وَنُورُ الفَضَائِلِ بِالفَجْرِ الوَضَّاءِ. .. أَصْبَحْتُ أُنْشُودَةً يَتَرَنَّمُ بِهَا فَمُ الزَّمَانِ!

وَتَسَنَّمْتُ ذُرَى[٣] المَجْدِ سَرِيعًا بِوَثْبَةِ الأُسْدِ، وَصَعَدْتُ لِلْعُلا بِرِيشِ النُّسُورِ، وَغَدَا تُرَابُ الأَرْضِ فِي رَاحَتِي تِبْرًا[٤]، وَتَسَامَتِ الدُّنْيَا بِفُيُوضَاتِي

---

(١) الاعْتِلاَجُ: الاضْطِرَابُ. وَاعْتَلَجَ المَوْجُ: الْتَطَمَ، وَيُقَالُ فِي المَثَلِ: (اعْتَلَجَ الهَمُّ فِي صَدْرِهِ).

(٢) أَيْ: مُتَغَيِّر فَاسِد.

(٣) (ذُرَى) جَمْعُ (ذِرْوَة)، وَ(ذِرْوَةُ كُلِّ شَيْءٍ): أَعْلاَهُ.

(٤) التِّبْرُ: فُتَاتُ الذَّهَبِ، أَوِ الفِضَّةِ؛ قَبْلَ أَنْ يُصَاغَا.

الخَيْرَ عَلَى العَالَمِينَ.

وَمِنْ لَحْظَةِ وُجُودِي في الحَيَاةِ؛ وَأَنَا أَعْرِفُ ذَاتِي، وَأَعْرِفُ طَرِيقِي، كَمَا أَعْرِفُ هَدَفِي، وَكُنْتُ كَالنَّهْرِ أَحْفُرُ لِنَفْسِي المَجْرَى، وَمَسِيلِي بِالخَيْرِ أَيْنَمَا انْحَدَرْتُ وَتَوَجَّهْتُ .. وَتَدَفَّقْتُ.

وَسِرْتُ عَلَى دَرْبِي بِخُطِيٍّ ثَابِتَةٍ لاَ تَضْطَرِبُ .. تَتَآلَفُ وَتَتَنَاغَمُ ذَرَّاتُ كَيَانِي، تَعْرِفُنِي وَأَعْرِفُهَا، وَعِطْرُ دَرْبِي لَمْ تُدَنِّسْهُ أَنْفَاسُ الذِّئَابِ.

يَنْبَثِقُ مِنْ دَاخِلِي نُورٌ وَضَّاءٌ يَسْطَعُ مِنْ بَيْنِ جَوَانِحِي، يَفِيضُ مِنْ حَوْلِي، أَنْثُرُه كَالنُّجُومِ في الفَضَاءِ المَدِيدِ يُنِيرُ لِلْعَالَمِينَ وَيَهْدِي السَّائِرِينَ.

تَتَرَكَّزُ دَائِرَةُ الضَّوْءِ عَلَيَّ، يَنْدَمِجُ النُّورُ مَعَ ذَاتِي، يَغْشَى كُلَّ ذَرَّاتِ كَيَانِي، نُورٌ أَنَا .. وَضَّاءٌ وَضِيَاءٌ يَزْرِي بِكُلِّ ضِيَاءٍ .. وَأَشُقُّ طَرِيقِي في النُّورِ، أَتَلأْلأُ في ظُلْمَةِ لَيْلٍ بَهِيمٍ، أُزِيحُ الظَّلاَمَ .. أُبَدِّدُه، وَأَرْفَعُ نِيرَ الظُّلْمِ[1] عَنْ كَوَاهِلِ[2] العَالَمِينَ.

أُصْبِحُ قِبْلَةً يَتَجَمَّعُ حَوْلَهَا الحَيَارَى البَاحِثُونَ عَنِ الطَّرِيقِ بَعْدَ أَنْ تَاهُوا دُهُورًا، وَتَاهَتْ خُطُواتُهُمْ في دُرُوبِ التِّيْهِ[3] .. المَوَاتِ.

ضَمَمْتُ العَالَمَ طِفْلاً بَيْنَ ذِرَاعَيَّ الوَدِيعَتَيْنِ أَحْنُو عَلَيْهِ مِنْ غِيَابِهِ في

---

(١) هِيَ: الخَشَبَةُ المُعْتَرِضَةُ فَوْقَ عُنُقِ الثَّوْرِ أَوْ عُنُقَيّ الثوْرَيْنِ المَقْرُونَيْنِ لِجَرِّ المِحْرَاثِ أَوْ غَيْرِهِ.

(٢) جَمْعُ: (كَاهِل).

(٣) أَيْ: الصَّحَرَاء الَّتِي لاَ عَلاَمَةَ فِيهَا يُهْتَدَى بِهَا.

لُجَجِ الضَّيَاعِ وَالعَذَابِ.

لَقَدْ كُنْتُ لِلْعَالَمِ الكَوْكَبَ اللاَّمِعَ، وَالنِّبْرَاسَ السَّاطِعَ، وَالبَدْرَ الزَّاهِرَ، وَالبَحْرَ الزَّاخِرَ .. كُنْتُ النُّورَ وَالضِّيَاءَ .. كُنْتُ الخِصْبَ وَالنَّمَاءَ .. كُنْتُ الجُودَ وَالعَطَاءَ .. كُنْتُ الوُدَّ وَالصَّفَاءَ .. كُنْتُ الحِكْمَةَ وَفَصْلَ القَضَاءِ، وَكُنْتُ الفِطْنَةَ وَالذَّكَاءَ .. كُنْتُ السَّنَا وَالثَّنَاءَ .. كُنْتُ الزَّهْرَةَ الزَّهْرَاءَ في الرَّوْضَةِ العَذْرَاءِ. ... كُنْتُ لِلدُّنْيَا كَالنُّورِ لِلْعَيْنِ، بَلْ كَالرُّوحِ لِلْجَسَدِ.

أَصْبَحْتُ مَنَارَةً لِلسَّائِرِينَ .. يَسِيرُونَ عَلَي دَرْبِي، وَيَتَّبِعُونَ خُطَايَ، تُصْبِحُ الخُطَى خُطْوَةً وَاحِدَةً، تَرْسِمُ لِلْعَالَمِ عَلَي الطَّرِيقِ صُوًى[1] لِلنَّجَاةِ.

وَبَدَأَ العَالَمُ يَأْلَفُ سَمَاعَ أَغَارِيدِ الطُّيُورِ الشَّادِيَاتِ عَلَى الغُصُونِ، وَالوُرُودُ تَخَضَّلَتْ[2] بِالنَدَى، وَتَنَهَّدَتْ بِعِطْرِهَا الفَوَّاحِ؛ فَفَاحَتْ بِالعَبِيرِ .. كُنْتُ كَوَرْدَةٍ فى قَفْرٍ، أَوْ كَغُصْنِ رَيْحَانَةٍ أَمْلُودٍ[3]..

❁❁❁❁❁

وَلَكِنْ .. بَعْدَ هُنَيْهَةٍ؛ تَصْدَأُ في القَلْبِ السِّنُون، واللَّيَالِي الحَبَالَى

---

(١) ((صُوًى) جَمْعُ (صُوَّة): مَا نُصِبَ مِنَ الحِجَارَةِ كَأَعْلاَمٍ لِيُسْتَدَلَّ بِهِ عَلَى الطَّرِيقِ فِي الفَيَافِي (الصَّحرَاء الوَاسِعَة)، وَالمَفَازَةُ: (الصَّحرَاءُ) المَجْهُولَةُ، وَفِي الحَدِيثِ: "إِنَّ لِلإِسْلاَمِ صُوًى وَمَنَارًا كَمَنَارِ الطَّرِيقِ".

(٢) أَي: تَبَلَّلَتْ بِالنَّدَى.

(٣) الأَمْلُودُ: الغُصْنُ الغَضُّ اللَّيِّنُ.

سَئِمْنَ الوِلادَةَ فَأَجْهَضْنَ الجَنِين، وسَقْطُ اللَّيَالِي مَسْخٌ مُشَوَّهٌ مَنْبُوذٌ كَرِيهٌ فى العَالَمِينَ .. وأطلَّ صُبْحٌ أسودُ ضَاعَ فَجْرُهُ أَتْعَسُ مِنْ لَيْلٍ حَزِين .. مُتَجَلْبِبٌ بِضَبَابٍ وغُيُوم، والضوءُ بِهِ ضَنِين.

وَسَاحَتْ في الأرضِ البُومُ والغِرْبَان، وَهَاجَتِ الخَفَافِيشُ وَجَوَّابَاتُ اللَّيْلِ السُّودِ، وَخَرَجَتِ الزَّنَابِيرُ[١] مِنْ أَعْشَاشِهَا .. وَانْطَلَقَتِ الذِّئَابُ وَالوُحُوشُ مِنْ عُقُلِها[٢] لِتَعيثَ في الأَرْضِ فَسَادًا .. وَخَرَسَتِ الأَطْيَارُ عَنْ تَغْرِيدِهَا.

وَغَاضَتِ الأَمَانِي، وَذَوَتْ نَوَّارَاتُ الآمَالِ، وَانْجَرَفَتِ الأَحْلاَمُ، وَانْحَدَرَتْ إِلَى ظُلُمَاتِ اللُّحُودِ، وَتَهَاوَتْ إِلَى جَحِيمِ القُنُوط .. وَأَضْحَتِ الأَرْضُ قِفَارًا يَبَابًا، وَجَفَّتِ الغُدْرَانُ، وَغَارَ النَّبْعُ الصَّافِي الرِّقْرَاقُ في وَادِي الأَلَمِ مُتَعَثِّرًا بَيْنَ جَلاَمِيدِ[٣] الصُّخُور، وَتَجَلْبَبَ الزَّهْرُ الجَمِيلُ بِظُلْمَةِ اللَّيْلِ، وَاخْتَفَتِ النُّجُومُ خَلْفَ الغُيُومِ، وَأَنَاخَ ضَبَابُ الأَسَى بِكَلْكَلِهِ[٤] المَقِيتِ.

---

(١) (الزَّنَابِيرُ) جَمْعُ (زُنْبُور) وَ(زُنْبَار)، وَوَاحِدَتُهُ: زُنْبَارَةٌ، وَهِيَ حَشَرَةٌ أَلِيمَةُ اللَّسْعِ مِنَ الفَصِيلَةِ الزُّنْبُورِيَّةِ.

(٢) (العُقُلُ) جَمْعُ (عِقَال)؛ وَهُوَ: الحَبْلُ الَّذِي يُعْقَلُ بِهِ النَّاقَةُ، وَعَقَلَ البَعِيرَ أَيْ: ثَنَى وَظِيفَةَ مَعَ ذِرَاعِهِ وَشَدَّهُمَا جَمِيعًا فِي وَسَطِ الذِّرَاعِ.

(٣) (جَلاَمِيدُ) جَمْعُ (جَلْمَد) وَ(جُلْمُود)؛ أَيْ: صَخْر.

(٤) نَاخَ الجَمَلُ؛ أَيْ: بَرَكَ، وَ(الكَلْكَلُ): الصَّدْرُ، أَوْ مَا هُوَ بَيْنَ التَّرْقُوَتَيْنِ.

جَلْجَلَةُ الرِّيحِ تُدَوِّي، وقَصْفُ الرَّعْدِ يُزَمْجِر .. رُعُودٌ وَبُرُوقٌ وَعَوَاصِفٌ وَسُحُبٌ حَمْرَاءُ تُمْطِرُ جَمْرًا وَمِلْحًا وَسُمُومًا .. وَهَوَتِ الأَغْصَانُ، وَذَبُلَ الشَّجَرُ، وَتَسَاقَطَتْ أَزْهَارُ الرُبَى، وَامْتَلأَتِ الأَرْضُ بِمَيْتِ الزَّهْر، وَرَكَدَتِ[1] الدِّمَاءُ في العُرُوقِ. وَابْتَرَدَتْ رُوَيْدًا رُوَيْدًا، وَشَاعَ في الأَرْضِ المَوَاتُ.

يَنْسَحِبُ النُّورُ وَيَتَنَاءَى، وَتَعْلُو الظُّلْمَةُ وَجْهَ الأَرْضِ .. تَصْرُخُ في وَجْهِ الصُّبْحِ .. "وَسَرَتْ سُوَيْعَاتُ المَسَاءِ مَرِيرَةً مُرَنَّحَاتٍ بِالأَنِين، وَاللَّيْلُ مَشْلُولُ الخُطَى .. مُقْعَدٌ، مُكَبَّلٌ بِقُيُودٍ لاَ تَلِين، وَالصُّبْحُ يَفرقُ مِنْ هَوْلِ الدُّجَى .. يَتَوَارَى .. يَأْبَى أَنْ يَكُون" ..

سَوَادٌ حَجَرِيٌّ طَاغٍ عَاتٍ يَبُثُّ الفَوْضَى .. تَتَعَدَّدُ الخُطُوَاتِ بِتَعَدُّدِ الأَقْدَامِ. تَضْطَرِبُ الخُطُوات .. تَتَرَنَّحُ، وَتَتَصَادَمُ الأَقْدَامُ، تَغُوصُ في أَرْضٍ رَخْوَةٍ وَأَوْحَالٍ، وَتَنْحَرِفُ الخُطَى .. يَتَلَعْثَمُ رَمْلُ الطَّرِيقِ، تَضْطَرِبُ حَبَّاتُه، تَرْسِمُ عَلَي وَجْهِهِ خُطُوطًا عَرْجَاءَ .. يَتَوَعَّرُ[2] المُرْتَقَى، وَتَتَصَدَّعُ الأَرْضُ، وَالرِّمَالُ الخَائِنَةُ ابْتَلَعَتِ الأَثَرَ!

❁❁❁❁❁

وَفَاحَ مِنَ الأَجْسَادِ الحَمَأُ اللاَّزِب .. تَخْتَلِفُ ذَرَّاتُ كَيَانِي .. تَتَنَازَعُ ..

---

(١) رَكَدَ: سَكَنَ وَهَدَأَ وَثَبَتَ.

(٢) وَعَّرَ المَكَانَ؛ أيْ: جَعَلَهُ وَعْرًا، وَ(الوَعَارَةُ): الصَّلاَبَةُ.

تَتَنَافَرُ .. تَبْنِي بَيْنَ بَعْضِهَا البَّعْضِ جُدُرًا وَسُدُودًا، وَبَقَايَا الحُبِّ تَنْزَوِي .. تَتَوَارَى .. تَذْوِي .. تَذُوبُ؛ كَخَيَالٍ مِنْ عَالَمِ المَوْتِ يَنْسَابُ بِصَمْتٍ مَا بَيْنَ القُبُورِ.

حِقْدٌ وحَسَدٌ يَسْتَحِيلُ إِلَى جَمْرَةٍ تَتَلَظَى .. إِلَى جَحِيمٍ مُسْتَعِر، دَمٌ أَسْوَدُ يَسْرِي فِي العُرُوقِ، يَسْتَحِيلُ إِلَى خَنَاجِرَ وَسُيُوفٍ. تَتَعَادَى، تَتَبَاعَدُ ذَرَّاتُ كَيَانِي، (مَرَارَةٌ وَعَارٌ) .. تَتَلاَطَمُ وُجُوهٌ مِنْ حَجَرٍ خَبَا مِنْهَا اللَّوْنُ وَالْبَرِيقُ، تَسْرِي فِيهَا الشُّرُوخُ وَالشُّقُوقُ .. تَتَكَسَّرُ .. تَتَطَايَرُ الذَّرَّاتُ كَزُجَاجٍ هَشٍّ قَدْ تَحَطَّمُ.

تَتَنَاثَرُ الذَّرَّاتُ عَلَى الطَّرِيقِ، وَتَخْتَلِطُ مَعَهَا الأَشْلاَءُ وَالأَعْضَاءُ وَالدِّمَاءُ .. تَعْوِي الغِرْبَانُ وَبَنَاتُ آوَى عُوَاءً كَرِيهًا مَدِيدًا فَوْقَ مُنْبَطَحِ الْعِظَامِ وَالجَمَاجِمِ وَالأَشْلاَءِ، يُرَفْرِفُونَ بِأَجْنِحَةٍ سَوْدَاءَ كَرِيهَةٍ تَحْجِبُ النُّورَ وَتَنْشُرُ الظُّلْمَةُ، تَتَجَمَّعُ حَوْلَ الأَشْلاَءِ سِبَاعُ الطُّيُورِ وَجَمَاعَاتُ الوُحُوشِ البَغِيضَةِ تُمَزِّقُهَا شِلْوًا شِلْوًا، وَالحَيَّاتُ الرُّقْطُ[1] تَتَمَطَّى كَأُخْطُبُوطٍ[2] لَعِينٍ، تَنْفُثُ

(١) ضَرْبٌ مِنَ الحَيَّاتِ بِهِ رُقْطَة، والرُّقْطَةُ: لَوْنٌ مُؤَلَّفٌ مِنْ بَيَاضٍ وَسَوَادٍ، أَوْ مِنْ حُمْرَةٍ وَصُفْرَةٍ، وَغَيْرِهِمَا.

(٢) الأُخْطُبُوطُ: حَيَوانٌ بَحَرِيٌّ إِسْطَوَانِيُّ الشَّكْلِ لَهُ ثَمَانِيَةُ أَرْجُلٍ رَأْسِيَّةٍ ، يُضْرَبُ بِهِ المَثَلُ فى شِدَّةِ التَّشَبُّثِ بِمَا يُمْسِكُهُ.

سُمًّا وَتَتَوَعَّدُ بِفَحِيحِهَا البَغِيضِ .. وتَكْثُرُ مِنْ حَوْلِهَا قُطْعَانُ الذِّئَابِ؛ مُتَقَلِّدَةً قِلاَدَةً مُؤَلَّفَةً مِنْ رُؤُوسِ الضَّحَايَا الَّتِي تَتَأَرْجَحُ عَلَي إِيقَاعِ وُلُوغِهَا في الأَشْلاَءِ .. يَتَقَاطَرُ دَمُ الضَّحَايَا مِنْ أَنْيَابِ الحَيَّاتِ وَالذِّئَابِ مُخْتَلِطًا بِالتُّرَابِ، وَاللِّسَانُ الدَّامِي يَبْرُزُ بَيْنَ أَنْيَابِهَا المُلْتَمِعَةِ، تَلُوكُ الذِّئَابُ المَسْعُورَةُ المُضْغَاتِ بِتَشَفٍّ .. تَعْلَكُ[1] أَكْبَادَ الضَّحَايَا بِانْتِشَاءٍ، فَكَمِ اسْتَعْصَتْ عَلَيْهَا سِنِينَ طُوَال؟!

و .. "الثَّوْبُ الدِّمَشْقِيُّ الحَرِيرُ[2] لاَ تَسَلْ مَنْ مَزَّقَه؟ وَالحِصْنُ الصُّلْبُ المَنِيعُ لاَ تَسَلْ مَنْ حَطَّمَه؟

لاَ تَسَلْ عَنْ مَنْ يُرِيدُ أَنْ يُطْفِأَ شَمْسًا تُشْرِقُ مُنْذُ أَكْثَرَ مِنْ أَلْفِ عَامٍ! .. لاَ تَسَلْ عَنْ مَنْ يُرِيدُ أَنْ يَرْدِمَ عُيُونًا تَجْرِي مُنْذُ أَكْثَرَ مِنْ أَلْفِ عَامٍ! .. مَنْ

---

(١) عَلَكَ العِلْكَ وَغَيْرَهُ؛ أَيْ: مَضَغَهُ وَأَدَارَه في فَمِهِ، وَ(العِلْكُ): نَوْعٌ كَاللِّبَانِ يُمْضَغُ فَلاَ يَذُوبُ.

(٢) يُقَالُ: حَرِيرٌ دِمَشْقِيٌّ وَخِزٌّ أَصْفَهَانِيٌّ، وَالحَرِيرُ الدِّمَشْقِيُّ المَقْصُودُ بِهِ نَسِيجُ (البُرُوكَار) مِنَ الحَرِيرِ؛ وَأَصْلُهُ مِنَ الصِّينِ، وَقَدْ وَصَلَ عَنْ (طَرِيقِ الحَرِيرِ) إِلَى الشَّامِ. وَكَانَ (طَرِيقُ الحَرِيرِ) يَبْدَأُ مِنْ مَدِينَةِ (شِيَان) فى وَسَطِ الصِّينِ، وَيَمُرُّ بِإِقْلِيمِ (سِنْكِيَانْج) فى غَرْبِهَا الشَّمَالِيِّ وَيَتَّجِهُ غَرْبًا إِلَى أَفْغَانِسْتَانَ وَإِيرَانَ وَالعِرَاقِ، وَتَنْتَهِي الرِّحْلَةُ عِنْدَ مِينَاءِ (اللاَّذِقِيَّة) السُّورِيِّ، وَمِنْهُ عَبْرَ البَحْرِ إِلَى (جِنْوَة) في إِيطَالْيَا.

يُرِيدُ أَنْ يَقْطَعَ شَجَرَ النَّخِيلِ المُثْمِرِ؟ .. مَنْ أَرْسَلَ الذِّئَابَ لِتَلْعَقَ الأَثَرَ؟!

"صَاغَ الْهَدِيلُ حَنِينَهُ فِي نَوْحِهِ دَمْعًا بَكَتْ بِقَرِيضِهِ الْخَنْسَاءُ".

فَمَنْ يَرْحَمُ الشَّادِي ويَبْكِي لِلْوَتَرِ؟!

❁❁❁❁❁

وَنجَحَ تَآمُرُ خَنَافِسِ الغَبْراءِ في قَصِّ رِيْشِ النَّسْرِ الَّذِي كَانَ يُحَلِّقُ في قَصِيِّ الآفَاقِ! وَعَاثَ السِّفالُ في الأَرْضِ المُخْضَرَّةِ؛ فَأَحْرَقُوا خُضْرَتَها، وَتَحَوَّلَ المَاءُ دَمْعًا!

وَعَوَتِ الذِّئَابُ في الدُّرُوبِ المُظْلِمَةِ، تُعْلِنُ كُفْرَهَا بِالحَيَاةِ وَبِالنُّور .. تُدَنِّسُ المَعَابِدَ وَالمَسَاجِد .. تُطَارِدُ الصَّلَوَاتِ، يَرْتَدُّ إِلَيْهَا صَوْتُهَا وَلاَ مُجِيب، فَالمَوَاتُ يَدُبُّ فِيمَا حَوْلَهَا نَاشِرًا رِدَاءَهُ الأَسْوَدَ! صَمْتُ الصُّخُورِ وَصَمْتُ القُبُورِ، وَفَرَاغٌ مَيْتُ الآفَاقِ .. قَفْرٌ جُهَنَّمِيٌّ لَعِينٌ، وَ .. "كَمْ خَلَّفَتْ مِنْ جُثَثِ الأَمْوَاتِ أَنْيَابُ الذِّئَابِ؟!"

تَنْتَشِي الذِّئَابُ مَزْهُوَّةً بِوُلُوغِهَا في أَشْلاَءِ الفَرِيسَةِ الَّتِي تَنْدَلِقُ أَقْتَابُهَا[1] وَهِيَ بِلاَ حِرَاكٍ، تَرْمُقُهُ بِطَرْفٍ جَامِدٍ مَسْحُورٍ مُظْلِم، رَاضِيَةً بِذُلِّ القُيُودِ، مَبْهُورَةً بِالصَّيَّادِ، بَلْ وَتَحْنِي لَهُ الجِبَاهُ! ..

---

(١) انْدَلَقَ الشَّيْءُ؛ أَيْ: انْدَفَعَ مِنْ مَكَانِهِ، وَ(الأَقْتَاب): جَمْعُ (قِتْب) وَ(قَتَب)؛ وَهِيَ: الأَمْعَاءُ. وَالمَعْنَى: تَنْدَفِعُ أَمْعَاؤُهُ مِنْ بَطْنِهِ.

❁❁❁❁❁

مُسُوخٌ مِنَ البُلْهِ[١] تَعْجِنُ الوَهَمَ، وَتَتَجَرَّعُ كَأْسًا دِهَاقًا[٢] مِنَ الأَمَانِي الكَاذِبَةِ، وَتُمَنِّي نَفْسَها بِأَنْ تَكُونَ يَوْمًا ذِئْبًا مِثْلَهُ .. تَعْوِي كَعُوَائِهِ، تُقَلِّدُ حَرَكَاتِهِ، تَسِيرُ مِثْلَهُ فِي الدُّرُوبِ المُظْلِمَةِ .. أَضْحَتْ مِثْلَهُ تُحِبُّ الظُّلْمَةَ وَتَكْرَهُ أَنْ يَسْطَعَ ضُوءُ الشَّمْسِ! .. بَلْ يُسْعِدُ الضَّحِيَّةُ -بِوُلُوغِ الذِّئْبِ فِي أَحْشَائِهَا- أَنْ تَذُوبَ فِي لَحْمِهِ وَدَمِهِ!!

صَنَعَتْ مِنْ بَقَايَا نَجَاسَاتِهِ صَنَمًا لَهُ .. تَحْرِقُ لَهُ البُخُورَ، وَتُوقِدُ لَهُ الشُّمُوعَ، وَتَتَعَبَّدُ فِي مِحْرَابِهِ! .. هَيَّابَةً مِنْ لَعْنَتِهِ وَبَطْشِهِ وَعِقَابِهِ، تَرْجُو وَتَأْمَلُ أَنْ تَسْتَخْرِجَ مِنْ بِئْرِ نَجَاسَاتِهِ اليَاقُوتَ وَالمَرْجَانَ! .. تَرْتَشِفُ مِنْ عَصِيرِ عَفَنِهِ المَعْجُونِ بِالوَحْلِ، وَتُصَفِّقُ فِي بَلاَهَةٍ فِي مَسْرَحِ الغَجَرِ لِسَاحِرٍ يُمَوِّهُ[٣] الأَشْيَاءَ فِي العُيُونِ، وَلِمُهَرِّجٍ يَعْجِنُ فِي أَسْنَانِهِ الزُّجَاجَ وَالحَجَرَ .. وَآهٍ مِنْ إِبْهَارِ المُجُونِ فِي مَسْرَحِ الغَجَرِ!

❁❁❁❁❁

---

(١) (البُلْهُ) جَمْعُ (أَبْلَه) وَهِيَ (بَلْهَاء)، وَ(البَلاَهَةُ): ضَعْفُ العَقْلِ وَغَلَبَةُ الغَفْلَةِ.

(٢) أَيْ: كَأْسًا مُتْرَعَةً مُمْتَلِئَةً.

(٣) (التَّمْوِيهُ) هُوَ: التَّلْبِيس، وَمِنْهُ قِيلَ لِلْمُخَادِعِ: مُمَوِّهٌ. وَقَدْ مَوَّهَ فُلاَنٌ بَاطِلَهُ: إِذَا زَيَّنَهُ وَأَرَاهُ فِي صُورَةِ الحَقِّ. وَالمَقْصُودُ هُنَا أَنَّهُ يَخْدَعُ النَّاسَ فَيُرِيهِمُ الأَشْيَاءَ عَلَى غَيْرِ حَقِيقَتِهَا.

تَتَكَاثَرُ مِنْ حَوْلِي السَّهَامُ وَالرِّمَاحُ؛ تَتَنَاثَرُ في جَسَدِي الطَّعَنَاتُ وَالجِرَاحُ، وَلَكِنْ .. كَفَارِسٍ نَبِيلٍ في الزَّمَنِ الصَّعْبِ وَقْتَ المِحَنِ، يَتَعَالَى عَلَي جِرَاحَاتِهِ، وَلاَ يَسْقطُ أَبَدًا عَنْ صَهْوَةِ جَوَادِهِ، وَلاَ يَتَخَلَّى عَنْ مَقْبِضِ سَيْفِهِ.

تُوقِظُنِي النَّكَبَاتُ وَالمِحَنُ .. تَشُدُّ مِنْ عَزْمِي، تَشْحَذُ هِمَّتِي، فَالفَارِسُ لاَ يُوقِظَهُ نَغَمُ قِيثَارةٍ، وَلاَ يُزْعِجُ مَضْجَعَهُ وَلاَ يَقُضَّهُ صَوْتُ صَفيرِ بُلْبُلٍ وَلاَ كَرَوَانٍ .. وَلَكِنْ يُرْهِفُ حَوَاسَهُ نَعِيقُ الغِرْبَانِ وَعَوِيُّ الذِّئَابِ، وَيُشْحِذُ هِمَمَهُ فَحِيحُ الأَفَاعِي وَزَئِيرُ الضِّبَاعِ.

❁❁❁❁❁

حَرَّ صَدْرِي حتَّى صَلَّ[1] مِن بَلِيَّتِي في أَفْلاذِ أَكْبَادِي[2] كَامْرَأَةٍ حَرِيرةٍ مَكْلُومَةٍ[3] .. يَثُورُ الْجَمْرُ في لُغَتِي .. يَعْلُو نِدَائي .. تَحُومُ عَيْنَايَ عَبْرَ التُّخُومِ .. تَصعَدُ التِّلاَلَ وتَمْسَحُ السُّهُولَ، أُحَطِّمُ الأَغْلاَلَ وَالقُيُودَ، أُزِيبُ

---

(١) أَيْ: الْتَهَبَتِ الحَرَارَةُ في صَدْرِي حَتَّى سُمِعَ لَهَا صَلِيلٌ، وَحَرَّتْ كَبِدُهُ وَصَدْرُهُ وَاسْتَحَرَّتْ؛ يَعْنِي: يَبِسَتْ كَبِدُهُ مِنْ عَطَشٍ وَنَحْوِهِ.

(٢) (فِلَذُ) وَ(أَفْلاَذٌ): جَمْعُ (فِلْذَة)؛ وَهِيَ: القِطْعَةُ مِنَ الكَبِدِ وَاللَّحْمِ وَالذَّهَبِ وَالفِضَّةِ. وَ(أَفْلاَذُ الأَكْبَادِ): الأَوْلاَدُ.

(٣) امْرَأَةٌ حَرِيرَةٌ: حَزِينَةٌ مُحْرَقَةُ الكَبِدِ. وَمَكْلُومَة؛ أَيْ: مَجْرُوحَة.

الجُدُرَ وَالسُّدُودَ .. أُشَرِّقُ وأُغَرِّبُ، أُدَاوِي جِرَاحاتي، أُلَمْلِمُ آهَاتِي وَأَشْلاَئِي المُبْعْثَرَةَ، أَجْمَعُ ذَرَّاتِ كِيَانِي المُتَنَافِرَةِ .. أُمِيطُ عَنْهَا مَا عَلَقَ بِهَا مِنَ الأَوْحَالِ، أُصَفِّيها مِنَ الأَخْلاَطِ وَالأَوْشَابِ[1]، أَضُمُّهَا بِحَنَانٍ إِلَي صَدْرِي، أُدْخِلُهَا بِرِفْقٍ بَيْنَ طَيَّاتِ جَوَانِحِي، أُسْكِبُ فِيهَا مِنْ ذَاتِي، أُعِيدُهَا إِلَي كِيانِي .. أُسْقِيها مِنْ قَوارِيرَ بلسَمِي، وَكُؤُوسِ تِرْيَاقِي الَّذِي لَمْ يَنْضبْ وَلَنْ يَنضبْ أَبَدًا عَبْرَ السِّنِينِ.

أَمْسَحُ عَنْهَا الغُبَارَ وَالتَّحْفِيرَ وَتَجَاعِيدَ السِّنِينِ .. أَبُثُّها نَجْوَايَ وَوَجْدِي، أَصْرُخُ فِيهَا أَنْ تَصْحُو، أُذَكِّرُها بِمَاضٍ لاَ يُمْحَى، وَأَنْ لاَ تَهْوَى لِقَاعٍ مِنْ غَيْرِ قَرَارٍ! .. أُسْمِعُها أَنِينَ أَمَلِي وَنَحِيبَ رَجَائِي، وَأُرْشِفُها رُضَابَ أَسَايَ وَرَحِيقَ أَلَمِي.

أَبْكِي بُكَاءً حَارًّا بُكَاءَ ثَكَالَى النُّسُورِ مَا فَقَدَتْ مِنْ نُسُورٍ كَانَتْ تَضْرِبُ يَوْمًا بِأَجْنِحَتِهَا مُحَلِّقَةً في كَبَدِ السَّمَاءِ مُحَدِّقَةً في عَيْنِ الشَّمْسِ؛ فَيَا لَوْعَةَ المَحْزُون في كَبِدِي!!

❁❁❁❁❁

تحوَّلَتِ الأَحْزَانُ في صَدْرِي إِلَي رِيحٍ عَاصِفَةٍ تَقْتَلِعُ نِيَاطَ القَلْبِ[2] ..

---

(١) (الوِشبُ) وجَمْعُه (أَوْشَاب): الأَوْبَاشُ وَالأَخْلاَطُ.

(٢) نِيَاطُ القَلْبِ: مَا عُلِّقَ بِهِ إِلَي الرِّئَتَيْنِ.

وَهَمَى الدَّمْعُ[١] مِدْرَارًا ..

تَسَاقَطَتْ قَطَرَاتُ دُمُوعِي، تَنْسَابُ سَخِينَةً[٢] مِنْ ثَغَبِ[٣] فُؤَادِي (مَسْكَنِ الأنَّاتِ) عَلَي أَرْضٍ جَرِلَةٍ[٤] خَاشِعَةٍ[٥] عَطْشَى؛ فَاهْتَزَّتِ الأَرْضُ وَرَبَتْ .. مِنْ بَعْدِ بَوَارٍ قَدْ لاَنَتْ، تُنْبِتُ عُشْبًا أَخْضَرَ .. بَرَاعِمُهُ الصَّغِيرَةُ تَنْبَعِثُ فِيهَا الحَيَاةُ، وَتَبعَثُ الحَيَاةَ .. تَضْرِبُ بِجُذُورِهَا الضَّعِيفَةِ بَيْنَ الصُّخُورِ القَاسِيَةِ .. تَشُقُّ - بِإِصْرَارٍ - طَرِيقَهَا نَحْوَ الحَيَاةِ! أُنَحٍّ مِنْ طَرِيقِهَا كُلَّ سَاقِطَةٍ تُلَمْلِمُ الذُّلَّ وَالخِزْيَ لِلْمَأْفُونِينَ.

وَيَوْمًا .. يَقْوَى الضَّعِيفُ، وَالبُرْعُمُ الصَّغِيرُ يُصْبِحُ شَجَرَةً، تَتَشَابَكُ فِيهَا الأَغْصَانُ، تُصْبِحُ ظِلاًّ وَارِفًا وَخَمِيلَةً تَصْدَحُ فِيهَا الأَطْيَارُ .. وَيَصْحُو النَّائِمُ عَلَي صَوْتِ الفَجْرِ. وَتَتَفَتَّحُ الجِرَاحَاتُ قُطُوفًا دَانِيَةً مِنَ العَزِيمَةِ الصَّادِقَةِ

---

(١) أَيْ: كَأْسًا مُتْرَعَةً مُمْتَلِئَةً.

(٢) سَخِينَةٌ؛ أَيْ: حَارَّة، فَدُمُوعُ الحُزْنِ تَكُونُ سَاخِنَةً أَيْ: كَأْسًا مُتْرَعَةً مُمْتَلِئَةً.

(٣) الثَّغَبُ: هُوَ بَقِيَّةُ المَاءِ العَذْبِ فِي الأَرْضِ، وَالجَمْعُ: (ثِغْبان). وَ(الثَّعَب) -بِالعَيْنِ المُهْمَلَةِ: سَيْلُ الوَادِي، وَالجَمْعُ (ثُعْبَان).

(٤) الجَرَلُ: المَكَانُ الصَّلْبُ الغَلِيظُ الشَّدِيدُ مِنْ ذَلِكَ، وَمَكَانٌ (جَرِلٌ) وَالجَمْعُ (أَجْرَال). وَأَرْضٌ جَرِلَةٌ: ذَاتُ جَرَاوِلٍ وَغِلَظٍ وَحِجَارَةٍ.

(٥) أَرْضٌ خَاشِعَةٌ؛ أَيْ: يَابِسَةٌ لِعَدَمِ المَطَرِ.

نَحْوَ الشِّفَاءِ.

أُصْبِحُ قُطْبًا مَغْنَاطِيسِيًّا؛ تَتَجَمَّعُ حَوْلَهُ الذَّرَّاتُ .. تَتَشَابَكُ .. تَتَلاَحَمُ، تُصْبِحُ سَيْفًا مَشْهُورًا يَسْحَقُ رَأْسَ الحَيَّةِ، وَيُذْرِي[1] رَأْسَ الذِّئبِ.

❁❁❁❁❁

وَغَدًا .. تَصِيحُ "دِيَكَةُ الْفَجْرِ تَطْرُدُ بَقَايَا النَّوْمِ مِنْ عُيُونِ الزَّهْر". ...

فَغَدًا .. يُشْرِقُ فَجْرٌ جَدِيدٌ!

❁❁❁❁❁

(١) الإِذْرَاءُ: ضَرْبُكَ الشيءَ تَرْمِي بِهِ، تَقُولُ: ضَرَبْتُهُ بِالسَّيْفِ فَأَذْرَيْتُ رَأْسَهُ. انْظُرْ: "لِسَان العَرَب" (٣/ ١٥٠٠).

obeikandl.com